الفصل الرابع

عرض البيانات: تحليلها ومناقشتها

هذا الفصل يحتوى على المبحثين: المبحث الأول، يعرض فيه نتائج البحث من أنواع أغراض معلقة لبيد بن ربيعة. والمبحث الثاني، يعرض فيه نتائج البحث من أنواع القيم الإسلامية في معلقة لبيد بن ربيعة.

المبحث الأول: أغراض معلقة لبيد بن ربيعة

كما عرفنا فيما سبق أن أغراض الشعر وليدة الحياة والأحوال الطبيعية والاجتماعية التى تحيط به. وكانت تلك الأغراض كثيرة ومتعددة، ولكل شاعر أغراض خاصة للتعبير عن الشعر، وعرفنا أن أغراض الشعر المعروفة وهي الوصف والمدح والرثاء والهجاء والفخر والحماسة والحكمة والغزل وكل منها مختلفة بعضها عن بعض. ومن بين ذلك الشعراء لبيد بن ربيعة العامري وهو معدود من أصحاب المعلقات وفحولة الشعراء في عصره. وبعد البحث في معلقته وجد الباحث حوالى ثلاثة أغراض من أغراض الشعر التى سيعرض الباحث في السطور التالية :

1 - الوصف

هو الغرض الرئيسي في الشعر الجاهلي، وكثيرة من الشعراء الجاهليون يعبرون في وصف وأجادوا فيه وأن يصفوا شيئا مما شهدوه في بيئتهم. وكذلك لبيد بن ربيعة العامري أن أبرز الفنون التى جلّى فيها الوصف، ويستطيع القارئ لشعره أن يقف على اهتمامه بالوصف لأنه رصد الجزء الأكبر في شعره لهذا الفن.

فقد وصف الطبيعة ممثلة في حيوانها وفي رياضها ونباتها، وديارها وأطلالها، وفي كل صغيرة وكبيرة فما تكاد عينه تقع على مشهد من مشاهد الصحراء، إلا رسم له صورة أنيقة ذات حسن وبهاء. وأكثر أغراضه في وصف الحيوانات كاناقة والبقر والثور والأتان والفرس وحيوانات أخرى، لذلك قسم الباحث في هذا الوصف أقساما مناسبة بالحيوانات التي وصف بها لبيد بن ربيعة العامري في معلقته:

أ –الناقة

للناقة مكانة أثيرة في شعر لبيد بن ربيعة. فقد تحدث عنها ثلاثة أبيات في معلقته، فوصفها مبينا قوتها وضخامة جسمها وشدته وهي:

بطليحِ أسفارٍ تركنَ بقيةً # منها فَأَحنقَ صلبُها وسَنامُها
وإذا تَغالى لحمُها وتحسّرت # وتقطعت بعد الكَلال خِدامُها
فلها هِبابٌ في الزمِّام كأنها # صَهْباءُ خفَّ مع الجنوب جَهامُها[٩٧]

ويرسم لبيد صورة دقيقة لأسفار ناقته وهي تجد في قطع المفاوز والصحراء والطرق العريضة المجهولة وما فيها من أكام ونجاد يضل فيها السائرون، بصورة قوة الأسفار وصعوبتها بعد أن عرف الحال مفازا وطريقة عريضة مجهولة لا ماء فيها، ولقيت ضروبا من المخاطر والمشاق والعطش و لم يقترب منه أحد منذ زمن بعيد، والناقة تستطيع أن تسير في الأرض ولو كان الحال كذلك. ثم يقف الشاعر يتأمل جسم ناقته بعد طول

[٩٧] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع. (بيروت: الدار العلمية. 1993 م) ص 95-96

الرحيل، فإذا هو ضامر قد براه الرحيل، فبدا صلبها مهزولا كأنه ألواح ممدودة.

وفي البيت الثاني والثالث يرسم الشاعر الناقة بغالية لحمها وارتفعت إلى رؤوس العظام حتى كانت نشاطا في طول الرحيل ولو كان الماء قد قلّ. وهذه الحالة جعلت الناقة مختلفة بغيرها، فلا عجب أن الناس في الجاهلية مع وجود المفاوز والصحراء مدى طالت أنظار أعينهم، يستخدمونها في الرحيل مناسبة بهذه الحالة. وحتى يقول الشاعر في البيت الثاني والثالث، لو أراد الناس استخدام الناقة في طول الرحيل مع وجود الصحراء والمفاز العريضة، فينبغى لهم أن يرتفعوا لحمها ويجعلوا لحومها سمينة أو اختاروا الناقة لها لحوم ضخامة, لأن هذه الناقة ستستطيع أن تمشى مسافة طويلة. فلا عجب للناقة مكانة أثيرة في شعره ولا سيما في معلقته.

ب – البقرة

أكثر ما يرد ذكر البقرة الوحشية أو الثور الوحشي في سياق أو قصص، يستطرد إليها لبيد حين يتحدث عن ناقته، فيشبهها بهذه البقرة أو ذاك الثور. وفي معلقته وجد الباحث بيتين من الشعر تتحدثين عن وصف البقرة، وهما:

فَتوجَسّتْ رِزُّ الأَنيسِ فَرَاغُها # عن ظهرِ غيبٍ والأنيسُ سَقَامُها[٩٨]
لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنازعَ شِلوَهُ # غَبْسٌ كَواسَبُ لا يَمُنُّ طعامُها [٩٩]

وفي البيت الأول يصور لبيد البقرة خائفة مفزوعة حذرة تخاف الصياد. فتسمعت البقرة صوت الناس فأفزعها ذلك, وإنما سمعته عن ظهر غيب، أى لم تره وأنها تخاف أن الناس يهلكون ويصيدونها. في هذا الشعر وصف الشاعر البقرة فإنها أعظمها الناس في الجاهلية مثل الناقة ولها ثمينة بيع، فإذا قرأ أو سمع الآخرون فيشعرون بالجذب بوجود وصف البقرة في شعره.

ويرسم لبيد في البيت الثانى محنة البقرة التى تفقد ولدا, فافترست السباع، فانطلقت تجول بين الأكام، وتفتش في الأنجاد عن هذا الولد الصغير. ولا شك أن لبيد لم ينفرد بهذه الخصلة في وصفه لعواطف البقرة وذكر قصتها الحزينة المؤلمة، فقد شاركه في ذلك الأعشى فهو يصف في إحدى قصائده محاولة الوحش المتربص بالبقرة. ووصف الشاعر في هذا البيت كيف كانت محنة البقرة وجهودها للطلب لأجل فقدها ولدا، بعد أن عرف أن البقرة من أعظم الحيوانات في الجاهلية ومع وجود هذا الحال يشير الشاعر تأثير الأخرين بهذا الوصف.

---

[٩٨] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع..... ص 101
[٩٩] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع..... ص 99

ج- الحمار

والقصة التقليدية للحمار وأتانه هي أن يناضل الحمار الحمر الأخرى ليتفرد بالأتان فيدفعها أمامه ويخلو بها بعيدا، وفي معلقته وجدت ثلاثة أبيات تتحدث عن وصف الحمار, وهي:

أو مُلْمِعٌ وسقَتْ لأَحْقَبَ لاحَهُ # طرْدُ الفُحولِ وضَرْبُها وكِدامُها [١٠٠]
فتنازعا سَبِطا يطير ظِلالُه # كدُخانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرامُها
مشمولةٍ غُلِثَتْ بنابِتِ عَرْفَجٍ # كدخانِ نارٍ ساطِعٍ أسنامُها[١٠١]

وللحمار علامات وصفات عند لبيد – كما هي عند الجاهليين- فهو عراقي كريه الوجه يسوق أتنا سمينة. وأما لبيد فهو يرسم في هذه الأبيات وصف الحمار، لما كان لبيد في أوصافه دقيقا متأنقا كأنه يرسم لوحة فيعنى بكل جوانبها، فقد عني بالحمار وبين أوصافه الحسية، وعني بسيرته فبين خصاله وحالته النفسية. وصورة الحمار في شعر لبيد تجاد عند أقرانه الجاهليين، مثل: الأعشى، والنابغة، وامرئ القيس، وزهير، على أن أقرب هذه الصور إلى شعر لبيد.

د- الفرس

وليس لفرس قصة مثل القصص التى صاغها حول الناقة البقرة والحمار، ولعل مرجع ذلك إلى أنه ساق قصصها وحكى مغامراتها لأنها

---

[١٠٠] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ..... ص 96
[١٠١] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع..... ص 97-98

تشبه ناقته في صفتها وعادتها وما لقيت من مصائب ومحن. أما فرسه فلم تكن له قصة لأنه لم يتخذه مثلا لناقته، و لم يستعر من صفاته شيئا لخصال ناقته ولذلك كان لبيد في وصف فرسه عجلا غير مطيل، صرف همه لوصف جسمه ونشاطة وفرط سرعته. وكان لابد أن يقترن وصف الفرس يذكر فروسية لبيد وحسن جهاده في القتال. ووجدت في معلقته تتحدث عن وصف الفرس التي يميز لبيد فيها, وهي:

رفَّعْتُها طَرْدَ النِّعامِ وشَلَّهُ # حتى إذا سَمِنتْ وخَفَّ عِظامُها
قَلِقتْ رحالتُها وأَسْبلَ نحرُها # وابْتَلَّ مِن زبدِ الحَميمِ حِزامُها
تَرقى وَتَطْعنُ في العِنانِ وتَنْتحِي # وِردَ الحَمامةِ إذْ أَجَدَّ حَمامُها [١٠٢]

وفرس لبيد متميز بصفات، فهو ضخم متين كجذع الهاجري، طويل العنق، شديد العظام، ذو شديد ومرح. وفي هذه الأبيات يصفها لبيد قوية نشيطة في كل أحوالها حين يخرج بها أو حين يعود بها بعد جهد وعناء. وكأنه يصور هذا الفرس بالكمالة دون النقصان، وكما عرفنا أن الفرس حيوان يستخدم البطل للقتال في القتال، ولا يمكن بالفرس له عيب ومرض، وأنه يظهر مفاخر راكبه وهيبته. وكما صوّر لبيد يشبه بالحمامة ذات حركة سريعة، وبجانبها عمل باصطياد النعام مع المحافظة على أحواله الصحيحة وأجسامه النفيسة ولن يكلف أصحابه بالثقل والمشاق فوق الاستطاعة.

---

[١٠٢] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ..... ص 106

٥ – حيوانات أخرى

ولبيد مولع بذكر ضروب من الحيوان، منه ما يصف عنده فيطيل الوقوف ويصفه فيجيد وصفه، ومنه ما يرد ذكره في سياق تشبيه أو تمثيل. ومن هذه الحيوانات التي تعرض لذكرها في أشعاره: الظبي والنعامة والوعل وكلب الصيد والصقر والأسد والضفدع والذئب والحمامة والغراب. وكل هذه الحيوانات مما توجد بها بيئته، وللبيد فيها بصر، وله علم بطباعها وغرائزها وأشكالها، ولكن في معلقة لبيد يوجد نوع من الحيوانات، وهو الظبي في بيتين، وهما:

فعَلا فروعُ الأَيْهَقانِ وأَطْفَلتْ # بالجهلتَين ظِبائُها ونَعامُها
والعينُ ساكنةٌ على أطلائها # عُوْذا تَأَجَّلُ بالفَضاءِ بِهامُها [١٠٣]

وقد ظهر حب لبيد للحيوانات من كثرة ما أفرد له من شعر. في هذين البيتين وصف لبيد الظباء وعمليتها حتى أطفلت أي يخرج منها ولد بجانبي واد هذه الديار. ويرسم لبيد حالة الظباء تأكل النبات الكثيرة لتتخرج منها أولاد فأطفلت بجانب هذه الديار. وبعد الولادة وهي تشعر بالساكنة والأنيس على أولادها، كما عرف بأن الحيوانات قد استشعرت بالساكنة حينما جمعت مع أولادها، وفي القديم وصف لبيد البقرة التي هي حيرة واظطراب حينما تفارق أولادُها نفسَها.

[١٠٣] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ..... ص 91

2 - الفخر

عرف لبيد في حياته الجاهلية أنه صاحب الفخر، فخر بنفسه وفخر بقوم وهذا أمر طبيعي. فقد كانت له مكانة كبيرة في قومه، وقد مرّ في حياة الجاهلية أن بني عامر من القبائل الكبرى التي لها شأن عظيم ومكانة عالية. وتاريخ العامرين في حقيقته هو تاريخ البطولة والفروسية في نجد، وكان لأسرة لبيد نصيب كبير من هؤلاء الفرسان ذوى البأس الشديد والبلاء العظيم. أما لبيد فقد كان نفسه فارسا من فرسان قومه، فهو أبرز شعراء بني عامر، وأكبرهم مكانة، وأعلاهم منزلة، ولهذا فقد كثرة مفاخره وهذه المفاخر يعبرها في شعره.

ولذلك ظهر في شعره ضربان من الفخر: فخر بنفسه وفخر بقومه، فالفخر بنفسه تولّد من الأوصاف الثابته في نفسه من الشجاعة والكرم وفروسيته والمروءة والوفاء. وأما الفخر بقومه فتولّد من الخارج وهو قوم الذين يمدحونه ويكرمونه أنه من أعظم قومه. وأبرز الخصال التي افتخر بها لبيد في معلقته ثلاث: كرمه، وفروسيته، وبلاءه في مجالس الملوك، وهي كما يلي:

أ – الفخر بالكرم

وقد كانت خصال الخير والشرف في لبيد كثيرة متعددة لم تقتصر على خصلة، وحفلت قصائده بضروب من الفخر، فقد فخر بالشجاعة والكرم وفخر بالمروءة والإباء والوفاء وقوة

العصبية. وفي هذه النقطة, هي من أسباب براعة لبيد وتمكنه من فنه ومعرفته بأسرار صنعته أنه يحتال لموضوعه بمقدمات براعة، فحين يتحدث عن الكرم يصطنع له وسيلة كلوم زوجة وعتابها على إنفاقه وتبذير ماله أو يعتذر عن قلة ما يملك بتحمله حقوق الضعفاء أو غير ذلك من المناسبات. ووجدت في معلقته حوالى أربعة أبيات تتحدث عن الفخر بالكرم، وهي:

وجَزور أيسارٍ دعوتُ لحَتْفِها بمَغالقٍ متشابه أجسامُها
#
أدعو بهن لعاقرٍ أو مطفلٍ # بُذِلتْ لجيران الجميع لِحَامُها
فالضيفُ والجارُ الجنيب كأنما # هَبَطا تَبالةَ مُخْصِبًا أهضامُها
تَأوي إلى الأَطْنابِ كلُّ رَذيَّةٍ # مثلِ البَلِيَّةِ قالِصٍ أهدامُها [١٠٤]

وفخر لبيد بلعب الميسر في وقت البرد والجدب، والميسر سبيله إلى الإنفاق وإطعام الجائعين حتى ادعوا بالقداح أى مَن له أهل بالذبح لينحر ناقة عاقر أى التى لا تلد أو الناقة مطفل أى لا تلد معها ولدها، ثم تبذل لحومها لجميع الجيران. وفي البيت الأخير أنه أعطى الأضياف والجيران ولو كانوا غرباء، فالإنفاق لازم إليهم على لبيد. إذن فقد شهر لبيد بذلك حتى صار بيته مأوى الجياع وملجأ الفقراء، فلا عجب أنه يفتخر بهذا الكرم.

[١٠٤] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع..... ص107-108

ب – الفخر بفروسيته

ويفخر لبيد بأنه فارس جرئ شجاع، فقد شارك في بعض المعارك حتى عرف القوم بشجاعته وفروسيته. ووجدت حوالى أربعة أبيات تتحدث عن الفخر بفروسيته، وهي:

ولقد حَمَيْتُ الحيَّ تحمل شِكَّتِي # فُرْطٌ وشاحِي إذ غَدوتُ لجامُها
فعَلوْتُ مُرْتقبا على ذي هَبْوَةٍ # حَرِجٍ إلى أعلامهن قَتامُها
حتى إذا أَلْقَتْ يَدا في كافر # وأَجنَّ عوراتِ الثَّغْوَر ظِلامُها
أَسهلتُ وانتَصبَتْ كجِذعِ منيفة # جَرْداءَ يَحصُرُ دونها جُرَّامُها [١٠٥]

ومن مفاخر لبيد في فروسيته أنه يحمي قومه في حال حمل فرس مقدمة سريعة وأسلحة مجهزة ويمثل على قومه بنفسه فهو يركب على فرس ويستخدم بلجامها متهيئا إلى أي مكان حرب، فظهر من ذلك مفاخره ثم استمر مفاخره بمنزلته إماما وقدوة على قومه، فنظم الكفية للحرب، أي يكون ربيئة للأعداء على جبل قريب من جبال الأعداء، حتى إذا غربت الشمس وأظلم الليل. فلما غربت الشمس وأظلم الليل نزلت من المرقب وأتيت مكانا سهلا وانتصبت الفرس.

[١٠٥] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ص105-106

ج- الفخر في مجالس الملوك

لقد مرّ في حياة لبيد أنه كان كثير الوفاد على الملوك يحضر مجالسهم، ويحظى عندهم بمكانة رفيعة. كان يحضر مجالس النعمان التي يقيمها في البادية، كما كان يزور ملوك اليمن الأحباش. قد وجدت ثلاثة أبيات تتحدث عن الفخر بفروسيته، وهي:

وكثيرةٍ غُرباؤُها مجهولةٍ تُرجَى نَوافلُها ويُخشى ذامُها
#
غَلبٌ تَشَذَّرُ بالذُّحولِ كأنها # جِنُّ البَديِّ رَواسيًا أقدامُها
أنكرتُ باطلَها وبيؤْتُ بحقها عندي ولم يَفخرْ عليَّ كِرامُها
١٠٦

ويرسم لبيد في معلقته وهو يسجل مفاخره ومكارمه أن يشير إلى إحدى مناظراته في مجلس النعمان بن منذر ملك العرب. وفي هذه الأربعة افتخر لبيد بفريوسيته، بأنه نشأ في بيئة كريمة ومكانة رفيعة في أسرة الملوك قد أصبح فارسا في شبابه، وأعظم قومه، وأكرم أصحابه حتى عجب الناس بفروسيته. وهذا يدل على أن لبيد رجل كامل شجاع وكرم وفرسان وغني، فلا

[١٠٦] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع 106-107

عجب افتخر لبيد كله بما ملك من هذه الأوصاف المذكورة حتى كثرت أبيات معلقته تتحدث عن الفخر.

3 - الغزل

لم يفرغ لبيد للمرأة فيحبها ويغازلها ويبثها أشواقه, لأن لبيد كان من الشعراء الذين أخذوا أنفسهم بالجد، وعرفوا بالمهابة والوقار. ولذلك فقد قلّ في شعره الحديث عن الشعر الغزلي، كما قلّ الطرب واللهو، فهو لم يكن على شاكلة امرئ القيس وطرفة والأعشى الذين انصرفوا إلى اللهو والمجون والطرب ومغازل النساء، بل كان على شاكلة زهير والنابغة الذبياني. والغزل في شعر لبيد غزل تقليدي، شغل بعض مطالع قصائده، وقد استطاع لبيد أن يجود من الناحية الفنية في هذا الغزل. فورد فيشعره ذكر عدد من النساء مثل أسماء وسلمى ونوار وكبشة وهند. ووحدت في معلقته حوالى أحد عشر بيتا من شعره، تتحدث عن الغزل، وهي:

أَو لم تكن تدرى نَوَارُ بأنني # وصّالُ عقدِ حبائلٍ جَذَّامُها
ترَّاكُ أَمْكنةٍ إذا لم أَرْضها # أو يَعْتلقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها [١٠٧]

ورسم لبيد في هذين البيتين محبته حبا شديدا حبا شديدا بإمرأة إسمها نوار، ويريد أن يكون صلة قوية بها لا يريد أن تكون هذه الصلة قطيعة. وحتى يهجر الحبيبة ولا يترك الأماكن التى سكنت نوار فيها إلاّ أن يموت. وقد اتخذ من الغزل وسيلة للحديث عن موضوعات يؤثرها ويريدها.

[١٠٧] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع..... ص 103-104

وهذان البيتان يتغازلان إمرأة إسمها نوار في موقفه، وفي بعض الأحيان صوّر غزله عند الرحيل، فكما يلي:

شاقَتْكَ طُغْنَ الحيِّ حين تحملوا # فَتَكنَّسوا قُطُنا تصِرُّ خِيامُها
مِن كل مَحْفوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ # زوجٌ عليه كِلَّةٌ وقِرامُها
زُجَلاً كأنَّ نعاجَ تُوضِحُ فوقَها # وظِباءَ وَجْرَةَ عُطْفا أَرْآمُها
حُفِزتْ وَزايَلَها السَرابُ كأنها # أَحْزاعُ بيشَةَ أَثْلُها ورِضَامُها
[108]

جمع لبيد في هذه الأبيات الأربعة مشهدا كاملا للرحيل والوداع، فقد هدمت البيوت ولفت الخيام حتى ليسمع صوت مجيئها حين تمرّ على الرواحل أو تتحرك بها. وانظر كيف وصف الهودج[109] وبين أقسامه من الكِلة أى الستر وأنماط الثياب التى يغطى بها الهودج، أو يرسل ستارة حوله، وحين استكمل وصف الهودج نظر إلى النسوة فيه وقد مددن أعناقهن ينظرن نظرة الوداع. وفي هذه الأبيات يذكر لبيد المرأة عند الرحيل حين تكون في الهودج، فهي ناعمة مترفة أى هي تعيش في ترف وتكاثر، تظل عليه من بين الستر أو الكلة، ويصف هودجها في هودجها، ويصف راحلتها وهي تندفع مبعدة عنه. فكان لبيد لو يحب حبا شديدا بالمرأة فكثيرة من الأوصاف عن هذه المرأة ويتغازلها حتى يتبع مواضعها ويبين منازلها، فهدا كما يلي:

---

[108] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع .....ص 92-93
[109] ما تقع في عنق الناقة

مُرِيَّةٌ حلّتْ بفَيْدَ وجاورتْ أهلَ الحجاز فأين منك مَرامُها
#
بَمْشارقِ الجَبَلَين أو بِمُحَجَّر فتَضمَّنَتْها فَرْدةٌ فرُخامُها
#
فصوائقٌ أن أَيْمَنَتْ فمظِنَّةٌ فيها وِحافُ القَهر أو طِلْخَامُها [١١٠]
#

وكان لبيد يحب المرأة اسمها نوار حبا شديدا كما مضت أبياته تتحدث عنه، وفي هذه الأبيات الثلاثة من معلقته فهو يتغازل أيضا نوار، وهو يصف موضع نوار بأنها تسكن في مرية تجاوز أهل الحجاز، ولكن يريد أن تحل بفيد أى اسم بلد، أحيانا وتجاوز أهل الحجاز أحيانا. وبين بلادها وفيد والحجاز مسافة بعيدة، والشاعر يتغازل بذكر موقف حبيبته، ويريد أن يكون المسكن بينهما قريبة حتى يسّر عليهما أن يلقيا ويتصلا. وجاء بيت أخر من أبيات معلقته التى فتحدث عن الغزل، وهو يتغزل المرأة، وذلك البيت كما يلي:

فوقَفْتُ أسأَلُها وكيف سُؤالُنا # صُمًّا خَوالِدَ لا يَبينُ كَلامُها [١١١]

---

[١١٠] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ..... ص 94

[١١١] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ..... ص 92

وهكذا فإن لبيد يذكر المرأة ويتغزل بها في معلقته، ويذكرها حين يقف على الديار ويسأل الأطلال، ويصفها وهي راحلة ظاعنة يتابعها ببصره ويسايرها بخياله، فيعين المواقف التي مرّت بها أو نزلت فيها، ويصف أماكنها وهي خالية، ولذلك فقد تداخل ذكر المرأة بذكر الديار وحديثه إليها بذكرياته عن أطلالها.

فقد تغزل لبيد وذكر المرأة حبيبة وظعينة عائبة ولائمة، ولكن مع ذلك لا يعد الغزليين حين يذكر شعراء الغزل. وهذا حق فقد كان غزلا من الناحية الشكلية فقط، وغزله تقليدي ليس فيه من حرارة الوجد واشتعال العواطف واستياق المحبين، إلاّ ما كان يصطنع اصطناعا من الشوق والهوى. وذلك لأنه لم يكن بطبيعته ميالا للهو، راغبا في النساء، فقد عرف بالجد والعفة والهابة، ولذلك جاء أكثر غزله في مطالع قصائد أو عند ذكر الديار لضرورة فنية وتقليد عليه كما جرى عليه الشعراء من قبله.

المبحث الثاني: القيم الإسلامية في شعر لبيد بن ربيعة

كما مر في الفصل الثاني أن لبيد نشأ في أسرة شريفة ومكانة رفيعة وبيئة بهيرة ويحي في بيئة الملوك لاتتأثر بالبيئة الخارجية السلبية. وهذه الأحوال يتأثر على حياته وأعماله الأدبية لاسيما في الشعر، وكان لبيد عند نفسه في المرتبة الثالثة إذ يقدم امرئ القيس ثم طرفة، فأصبح من الشعراء المشهورين في الجاهلية، ليس لهم أصحاب المعلقة إذ كانت فخرا في العرب. وبعد الملاحظة إلى جملة المعلقة وتحليلها، وجد الباحث القيم الإسلامية في معلقته حوالى تسعة عشر بيتا تتضمن معنى القيم ومن جملة كلها ثمانية

وثمانين بيتا مع أنه صنع هذه المعلقة في العصر الجاهلي وجاء دين الإسلام فيما بعده أى ظهر الإسلام بعد الجاهلية. وسيأتي بيان تلك القيم الإسلامية في المعلقة في السطور التالية ويتمثل في:

أ – قيم عقلية

ودائما يدعو القرآن الكريم كل المسلم أن يستخدم عقله فيما خلق له من التدبر، فيتأمل وينظر ويحكم لا عن عقائد موروثة بل عن دليل ناطق وشهادة صحيحة. و يشير القرآن الكريم مرارا إلى ما وهب الإنسان من فضيلة العقل، وأن الله أودع هذه الفضيلة خواص تمكنه من السيطرة على جميع المخلوقات. وكما ذكر آنفا عمل لبيد في معلقته بأعماله الأدبية يعنى الشعر، فوجد الباحث ثلاثة أبيات تتضمن على القيم العقلية فيها، وهي:

– ترَّاكُ أَمْكنةٍ إذا لم أَرْضها # أو يَعْتلقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها [١١٢]

قضى الإسلام على الوثنية الجاهلية بكل ما تحيط من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة، وبذلك ارتقى بعقل الإنسان إذ خلصه من الحمقات والترهات، فإنها كلها مستحيل لا يقبل منها العقل الصحيح في الفطرة، فجاء الإسلام يمسح جميها الباطلة ويأمر أن يرتقى العقل الذي وهب الله تعالى الإنسان، دين الإسلام لايناقض العقل وعكسه.

يقول لبيد في هذا البيت أنه لا يترك الأمكنة التى تأويها النفوس إلاّ أن يموت. وأسباب هذا، أنه مال ميلا عظيما إلى المرأة التى تفوق في نفسه وصعب عليه أن

[١١٢] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع..... ص 103-104

نيسيها حتى أنه هاجر إلى بلادها وأقرّ فيها، وعنده قوة الإرادة في عدم تركها. والإسلام قد جاء بما شرع من شأن العقل وترقيه وأمر مرارا عديدا للإنسان استخدام العقل لحياته، وأما لبيد في هذا البيت فيستخدم عقله بما وهب من قوة الإرادة لنيل المنى والمقصود. وفي ذلك العصر وهو مولع بالمرأة، والإسلام لم يظهر فيه، ولكنه لا يشبه بالشعراء المشهورين بغزل المرأة، وهو يحب المرأة كما شعر الآخرين بهذه المشاعر. واللب في هذا البيت أنه عنده قوة الإرادة لنيل المنى والأمر المقصود، وهذا موافق بأوامر الإسلام.

- أسهلتُ وانتصبَتْ كجذَعِ مُنيفةٍ # جَرْداءَ يَحْصَرُ دونها جُرّامُها
- رَفَّعْتُها طردَ النِّعام وشَلَه # حتى إذا سَمِنت وخَفَّ عِظامُها [١١٣]

وكان لبيد ولد في أسرة ذات علم ومكانة رفيعة ذات باهرة. والدليل أنه قائد فرسان قومه وبدأ يصنع نظام الحرب، وهو يقول لما غربت الشمس وأظلم الليل نزل من المرقب وأتي مكانا سهلا وانتصب الفرس لهجوم الأعداء وحربهم. وقبل العمل بالفرس أنه نظر إلى حال الفرس إن كان قويا وصحة فيأخذه للحرب، وإن كان ضعيفا وتعبا فيتركه في مسكنه، وهذا لحصول الفتح في الحرب.

وكان الذكر الحكيم بالملائمة على من لايستخدمون عقولهم، فيشبههم بالأنعام التى لاتعقل، ويقول إنهم لا يمتازون في شيء عن الصم والبكم والعمي، وكثير ما تختم الأيات بمثل (أفلا تتذكرون)، (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)،

[١١٣] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع 106

(إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) للدلالة على أن الإسلام قد حث استخدام العقول على استمرار. إذن استخدم لبيد عقله بما وهب موهبة من الله تعالى بتخطيط نظام الحرب من استعداد الفرس قبله ونظام باهر فيه، وهذا موافق للإسلام بأنه أمر الإنسان أن يستخدم القعل في حياتهم فإن الله قد وهب كل الإنسان للتفكر والتدبر.

ب – قيم اجتماعية

وأخذ الإسلام يذكر القواعد الاجتماعية لهذه الأمة، بحيث تكون أمة مثالية يتعاون أفرادها على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالناس جميعا سواء في الصلاة وجميع المناسك وفي الحقوق والواجبات. وينبغى لهم أن أصبحوا إخوة، يشعر كل واحد منهم مشاعر أخيه، ألا أن لهم صلتان في الإسلام، صلة ربنية وصلة إنسانية بوجود لفظ الصلاة والزكاة في القرآن الكريم مازال متعاقبين في الذكر. وأما لبيد في معلقته فله أبيات تتحدث عن القيم الإسلامية ومنها قيم اجتماعية، ووجدت حوالى أربعة أبيات تتضمن على القيم الاجتماعية فيها، وهي:

- تأوي إلى الأَطْنَاب كلُّ رَذِيَّةٍ مثلِ البَلِيَّةِ قالِصٍ أهدامُها #
- ويُكَلِّلُوْن إذ الرِّياحُ تناوَحَتْ خُلُجًا تُمَدُّ شَوارِعا أَيْتامُها [١١٤] #

[١١٤] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ص108

وكما مرّ في ترجمته أن لبيد قد شهر بجوده وكرمه، وهذه الصفة موروثة من أبيه ربيعة العامري. وهو نشأ في أسرة كثيرة الأموال وقيمة الاجتماع العالية، وذلك يتأثر بأعماله الأدبية لاسيما في الشعر. وبيان هذين البيتين أنه أتى إلى المساكين والفقراء الذين هم عجزا عن الكسب في الرزق ليعطي ما ملك من الأموال. ولبيد مازال يهتم اهتماما كبيرا بالفقراء والمساكين والجيران جفانا عظاما مملوءة مرقا مكللة بكسور اللحم في كلب الشتاء وضنك المعيشة.

وذلك وجود الاهتمام للمساكين والفقراء الذى قد وفق على القيم الاجتماعية في الإسلام، على أنه يأمر مرارا على الإنسان أن يهتم بالإنسان الآخر بجانب الصلة الربّنية، فإن الإسلام له صلتان صلة ربّنية وصلة إنسانية . فورد ما في الإسلام من القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال العلماء أن الإنسان لا يصبح كاملا إلاّ أنه حصل على توافر الحبلين، حبل من الله وحبل من الناس. وما فعل لبيد في حياته ولو كان في الجاهلية من أقواله وأفعاله في ذلك الشعر دلالة على أنه قد طبّق قيما اجتماعية في الإسلام ومع أن الإسلام لم يظهر فيها. وهذا الاهتمام جعل لبيد إماما وقدوة لقومه وحاكما لهم، وينال منهم السعادة والكرامة، ويأتي بيان هذا فيما يلي:

- وهُم السُّعاةُ إذَا العشيرةُ أُفْظِعَتْ # وهم فَوارِسُها وهم حُكَّامُها
- وهُم رَبيعٌ للمُجاوِرِ فيهم # والمرْمِلات إذا تَطاوَل عامُها [١١٥]

[١١٥] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع 109-110

وكما وصف قومه أن لبيد من أهل الكرم والجود والأمنة والعقل الحادق، نال مكانا رفيعا وموقفا عظيما في قومه. وأما أحوال ذلك يقول إذا أصاب العشيرة من قومه في ذلك الوقت أمر عظيم سعوا إليه لكشفه فأنه فرسان العشيرة عند قاتلها وحكامها عند تخاصمها. وهذا القول برهان الاهتمام بقومه أنهم يقرون ويقولون له أمينا بكل الأوصاف وفي نفس لبيد. وبعد أن ينال جميع الأوصاف جعلوه حاكما وإماما يستطيع كشف الأومور العظيمة والهموم الكبيرة، وهذه الأحوال تتضمن القيم الاجتماعية في الإسلام أى أصبح لبيد حاكما وإماما يهتم بأمور تلك الأمة ليس له صفة أنانية لا يهتم الآخرين وإنما يكون له اهتمام بقومه لخدمتهم. واستعار قومه مجازا له بأنه ربيع للمجاور فيهم، والمعنى أنهم يلقب لبيد بأنه ربيع مازال مستعينا لمن جاوره ولمن احتاج إلى استعانه، ولعموم نفعه لقومه وإحيائه لهم بجوده كما يحي الربيع الأرض. فشعر القوم بالإطمئنان والسكنة لكثرة نفعه لهم.

وهذان البيتان موافقان للقيم الاجتماعية في الإسلام على أن لبيد يهتم بالآخرين ويعين إليهم في بعض أمورهم العظيمة ومشاكلهم الصعبة، فإن الله يكون في عون العبد ما دام في عون أخيه. وموافقان لأوامر الله تعالى لا تنفصل بين الصلاة والزكاة يدلان على أنهما من رموز دين الإسلام على أنه قد جمع صلة ربنية وصلة إنسانية واهتم بهما.

ج – قيم خلقية

لقد بعث الله تعالى محمدا ليتمم مكارم الأخلاق، وكما عرفنا قبل مجيئ الإسلام هناك عصر لا يعرف الناس خلقا حسنة وهو العصر الجاهلي. فجاء محمد

برسالته يعلّم أنواع الخلق الحسنة وبدأ يمسح الخلق السيئة. وكان صلى الله عليه وسلم قدوة وإماما ذوى الخلق الحسنة العالية المعبر في كتابه تعالى ب"أسوة حسنة"، ودين الإسلام لا يدعو إلى ذلّ النفس وعرضها، وإنما يدعو إلى نمو الأخلاق وترقيه.

ومع الإسلام لم يظهر في العصر الجاهلي، كان لبيد عنده خلق حسنة لأنه من أسرة الملوك ذوى الخلق الحسنة حتى جعله قومه إماما وقدوة، وعرفوه أنه من أهل الكرم والجود وكثرة الاهتمام للمجتمع، فوجد الباحث حوالي حادية عشر بيتا تتضمن معنى القيم الخلقية، وهي:

- وجَزورِ أَيْسارٍ دعوتُ لِحَتْفِها # بمغالِقٍ مُتشابِهٍ أَجْسامُها
- أَدعو بهن لعاقِرٍ أو مُطْفِلٍ # بُذِلَتْ لجيران الجميعِ لِحامُها [١١٦]

وصف قومه أنه ذو كرم وجود, وبهذا البيت دعا إلى أصحاب ميسر وجميع الناقة التى جعلها لتقامر الميسر أن تصلح للمصلحة من نحرها وإعطائها إلى الجيران، لأن ذلك أمر خطيئ ليس له نفع ومصلحة وإنما هو ضر ومضر. وكان لبيد إماما وقدوة في قومه دعى إلى أصحاب ميسر وجميع الناقة التى جعلها لتقامر يسر من نحرها وصرفها إلى الجيران الذين هم أقرب القرابة. وحتى أنه في البيت الثاني ادعو بالقداح لنحر ناقة عاقر أو ناقة مطفل تبذل لحامها لحومها لجميع الجيران.

فما عمل لبيد مثل هذا يعبره بهذا الشعر ملائم بأوامر الإسلام الذي أمر لإكرام الجيران واهتمامه لأنه من حسن الأخلاق، تمثل النبي صلى الله عليه وسلم في حياته الاجتماعية ولوكان كافرا، لأن الإسلام دين أكمل الأديان أنزله الله تعالى

---

[١١٦] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع 107

كافة للناس وهدى للمؤمنين والمتقين حتى الكافرين. مثل صحابة النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب الذي هو كافر وأعداء النبي، فسمع قراءة القرآن الكريم من أخته فهدى الله إليه أن يشرح صدره للإسلام.

وأن لبيد له أخلاق حسن في حياته الجاهلية ولو كان الإسلام لم يظهر في ذلك العصر، وهذا الأخلاق قد علّمه قومَه الذين هم يحتاجون إلى هدى منه في حياته الخلقية، فيعلّم ويدعو إليهم لإكرام الجيران واهتمامهم بإعطائهم ما ملك من الأموال والمذبوح. واستعدّ ضيافة كثيرة لمن زار مترله، فكما يلي:

- فالضيفُ والجارُ الجنيبُ كأنما # هَبَطا تَبَالَةَ مُخْصِبا أهضامُها [١١٧]

فإذا نظرنا إلى العرب وأحواله الجغرافية، فوجدناها في الصحراء وجوانبها آكام أى الجبل الصغير، وراحلتها ناقة وجمل في القديم، وقد يكون من يسافر إليها مشيا على الأقدام وفي بعض الأحيان نزل في بعض المساكن للمبيت وقتا قليلا ليبتعد عن البرد الشديد فيها. فأما لبيد من جواد قومه فيفتح أبواب مترلته لمن شاء ويكرم من زارها، وهو يقول فالأضياف والجيران الغرباء عنده كأنهم نازلون هذا الواد في حال كثرة نبات أماكنه. واستعار لبيد مجازا "في حال كثرة نبات أماكنه" معناه إذا زار الأضياف والجيران الغرباء والقرباء مترله، فلهم الضيافة والاهتمامة كحال كثرة نبات أماكنه، ويعطيهم ما ملك في المترل. وهو يقول في هذا البيت لا يكون فخرا وإنما يكون إعلانا لمن يسافر ويريد أن يترل مترله، فله الضيافة الكثيرة من الأطعمة والأشربة والمسكنة.

---

[١١٧] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع 107

وهذا العمل يتضمن القيم الخلقية الجيدة العظيمة يظهر قبل الإسلام، والإسلام قد حثّ وأمر مثل هذا. وهذه الصفة للبيد بن ربيعة من الأوصاف الجيدة والخلق الحسنة، دعا النبي صلى الله عليه وسلم برسالته وبدعوته إلى إكرام الضيوف والجيران الغرباء والقرباء.

- ومُقَسِّمٌ يعطي العشيرةَ حقَّها # ومُغَدْمِرٌ لحقوقها وهضَّامُها
- فَضلا وذو كرم يُعِينُ النَّدَى # سَمْحٌ كَسُوبُ رغائبٍ غَنَّامُها
- مِن معشر سنَّتْ لهم آباؤُهم # ولكل قوم سُنَّةٌ وإمامُها [١١٨]

لقد فعل لبيد شرائع الإسلام لا يعرف قبله، من هذه الشرائع أنه يقسم الغنائم، فيوفر على العشائر حقوقها ويتغضب عند إضاعة شيء من حقوقها. فعرفنا أن الناس في الجاهلية صرف أموالهم للميسر وشرب الخمر ولعب المرأة، ليس لهم قيود وقوانين وهم فعلوا ما شاؤوا مالت هوىهم، فجاء الإسلام يمسح تلك العادات السيئة لا تتفق طبيعة الأمة الحسنة خلقت في الدنيا. ولكن لبيد فعل إحدى شرائع الإسلام وهي قسم الغنائم يعنى أموال كسبها الناس من الحروب، إلى المستحقين بمقاسم معينة، ويتغضب بإضاعة شيئ من تلك الغنيمة التى لاتعطى إلى من استحق بها.

وكما سبق ذكره أنه يعطى الغنائم المستحقين، واستمر كرمه وجوده بإعانة أصحاب الكرم أى يعطيهم ما يعطون. وهذا الكرم من قوم سنّتْ لهم أسلافهم يعنى

[١١٨] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع 108-109

الجود والكرم للبيد، فنالهما من أسلافهم وأصولهم، إذ عنده أسلاف وأصول كرماء. ومع أن النسب لا يلزم أنه أمر مهم ضروري في توليد الفروع الصالحة، حثّ الإسلام على اختيار الزوج والزوجة ذوى النسب الصالح لحوصول النسل الصالح. فلا عجب أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الرجال اختيار الزوجة ذات نسب جيد صالح، فكما جرى هذا الأمر للبيد وهو من أسرة شريفة ذات الخلق الحسنة، فورثها وطبّقَها في حياته. فمن إحدى الموارث التى ورثها من أبيه وأسلافه صفة الكرم والجود. وكان لبيد يقول أن لكل قوم سنة وإمام اتبعهما قوم، فظوبى لمن صلحت سنتهم وإمامه. وهذا الأمر موافق للدين الحنيف الذى أمر مرارا للإنسان أن يسلك وإماما صالحا وسنة حسنة للحصول على نتيجة القيم الإسلامية الباهرة والخلق الحسنة.

- لا يَطْبَعون ولا يَبُوْر فِعَالُهم # إذْ لا يميلُ مع الهوى أَحْلامُها [١١٩]

أصبح لبيد إماما وحاكما في قومه بتلك الأوصاف الجيدة، وله مواعظ لقومه. فمن إحدى المواعظ أنه وعظ قومه أن لا تتدنس أعراضهم بعار، ولا تفسد أفعالهم، إذ لا تميل عقولهم مع أهوائهم. فإن الإسلام يحافظ على أعراض المسلمين ويحارم افساد أفعالهم وميل عقولهم مع أهوائهم، لأن العقول إذا مالت مع الأهواء فتوجّه إلى ذلّ العرض وتهليك الأفعال. وهذا من أسباب فساد الأمة لن تصبح أمة مثالية، وهذا موافق للقيم الإسلامية التى حافظت على تلك الأمور.

[١١٩] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ..... ص 109

- فاقْنَعْ بما قَسَمَ المليكُ فإنما # قسَمَ الخلائقَ بينَنا عَلاَّمُها [١٢٠]

ولو أنه في العصر الجاهلي، لكن بذور القيم الإسلامية الصالحة موجودة في نفسه منذ حياته الجاهلية. وهذا البيت يدل على لبّ قلبه الصفي، وإلى جانب تلك الأوصاف الحسنة البديعة سبق ذكرها، أنه بهذا البيت عرّف القناعة لقومه فيقول فاقنع أيها القوم بما قسم الله تعالى فإن قسام المعايش والخلائق علامها. أن الله تعالى قسم لكل ما استحقه من كمال ونقص ودفعة ووضعة، ولو أنه تعالى أمر بالجهد والوسعى لطلب المعايش والخلائق وغيرهما من الطبيعية الحياتية، ففي الحقيقة لها كلها بديع ومدبّر فلا تنسى أيها القوم خلق كل شيئ.

ومع أن الأسلاف والأصول الصالحة تعين مصالح فروعه، لكن الأمر الخاطر أن لكل شيئ خالق ومدبر، والخالق قد قسم المعايش والخلائق مع أقسامها. فظهرت هذه البذور للبيد منذ حياته الجاهلية فتوجّه إلى إسلامه لأنه في بعض عمره دخل الإسلام وحسن إسلامه. إذن وافقت القناعة أوامر الإسلام قد أمرها لأصحابه للحصول على القبض في النصيب والتسليم في الأمور.

- وَإذا الأَمَانةُ قُسِّمتْ في مَعْشَر # أَوْفى بأوفر حَظِّنا قَسَّامُها
- فبنى لنا بيتا رفيعا سَمْكُهُ # فَسَما إليه كَهْلُها وغُلامُها [١٢١]

كما كتب الباحث آنفا، أن بذور الإسلام ظهرت منذ حياته الجاهلية، فمن إحدى شرائع الإسلام التى هي بذوره الأمانة. وهو أمين بما ائتمن قومه فجعله

---

[١٢٠] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع 109

[١٢١] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ص109

حاكما، ولذلك دعا إلى قومه وعلّمهم أن أدوا الأمانة وأصبحوا أمينا. وعلّم الإسلام حفظ الأمانة، إذا ودع أحد إليكم يا قوم متاعه فعليكم أمينا أى حفظوا عليه. وكذلك لبيد قد يكون أمينا، وبهذا البيت دعا إلى قومه أن يكونوا أمينا، لأن الأمانة أوفى الأقوام. لو كنتم أمينا بنى الله لكم بيت شرف ومجد عالي السقف، وهذا من جزاء الأمين، وهذا الجزاء تشجيع وحماسة لهم لكي يفعلوا ما أمر من الأمانة وسبقوا إليها. كما بحث في المذكور أن الإسلام لم يظهر في هذا العصر، وإنما استخدم لبيد المصطلاحات الإسلامية مثل الأمانة وجزاءها، كأنه قد علّمه العلماء أو درس من الكتب السماوية، ولكن المهم أن ذلك موافق على شرائع الإسلام.

- وهم العشيرةُ أن يُبْطِئَ حَاسدٌ # أو أن يميلَ مع العَدُوّ لِئامُها [١٢٢]

لقد اختتم لبيد معلقته بهذا البيت تتضمن مواعظ حسنة لقومه، وهذه الموعظة هي موعظة أخيرة تقع في أخير أبيات المعلقة. أنه وعظ قومه أن يجتنب حسدا ولا تكون حاسدا. كما علّمهم المعالم المذكورة، علّم اجتناب وصف الحسد الذي جعل أمة فاسدة زالت أخوة، والإسلام يريد أمة واحدة بأخوة سليمة من تلك المفاسد. وهذا من الخلق الحسنة البديعة لبناء الأمة السليمة تملاء بالأخوة.

[١٢٢] أبي عبد الله الحسين. شرح المعلقات السبع ..... ص 110